

إيجابية الموقف الشرعي عند الأزمات

(*)
د.حسين علي أحمد

ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد... فالتعامل مع الأزمات يحتاج إلى بصيرة بالأدلة الشرعية، ورسوخ في العلم، واستيعاب وفهم لمقاصد الشريعة، ودراسة بقواعد المصالح والمفاسد، ويحتاج أيضا إلى وصف صحيح وواضح للأزمة، وفقه دقيق لتلك الأزمة، ليتسنى بعد ذلك تنزيل الحكم الشرعي، والموقف المطلوب الذي يتلاءم وتلك الأزمة.

ومن حق الجيل أن يرى قيم وثوابت الدين واضحة عند الأزمات بحيث تنزل هذه الثوابت والقيم إلى أرض الواقع لأن المسلمين سئموا التنظير من غير تطبيق، ووصف الداء من غير دواء، وكثرة الكلام والأقوال من غير عمل وفعال، والتغني بالأمجاد والرموز، من غير إقتداء بهم. ورؤية قيم الذين وثابته واضحة تكون من خلال السجل التاريخي المشرق وهو ((الموقف الإيجابي)) أو ((إيجابية الموقف)).

ABSTRACT

Thank for God and blessing on our messenger with all his followers:
The dealing with problems needs to a vision in Islamic evidence,fixable and deep Science,understanding the aim and the goal of Islamic rules and studying the rules of the benefits and the corruptions.it also needs to true and clear description of the problem and an accurate understanding for that problem so alto put an Islamic judgment which is Suitable with the problem

The new generation has the right to see
the values and the rules of the religion clear thought out the problem
which are put on the actual life

(*)مدرس في قسم الحضارة الإسلامية،كلية العلوم الإسلامية،جامعة الموصل.

Because the Muslims hate the theories which are for away practice Just like "describe the diseases with –out drug" there are many speeches and sayings without any practicability. Watching the values of the religion clear that thought the historical record is called "the positive attitude" or the positively attitude".

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد... فالتعامل مع الأزمات يحتاج إلى بصيرة بالأدلة الشرعية، ورسوخ في العلم، واستيعاب وفهم لمقاصد الشريعة، ودراسة بقواعد المصالح والمفاسد، ويحتاج أيضا إلى وصف صحيح وواضح للأزمة، وفقه دقيق لتلك الأزمة، ليتسنى بعد ذلك تنزيل الحكم الشرعي، والموقف المطلوب الذي يتلاءم وتلك الأزمة. وفي حياة الأمم – أيّا كانت – مفترقات حاسمة وصعبة ومصيرية قد ترسم لها صورة المستقبل؛ والأمة الإسلامية تبدو للناظر في حاضرها أنها رهينة مرحلة مخاضية خطيرة، تتحدد على ضوءها المواقف، وتتضح على إثرها تفاعلت الأزمة.

ليس بمستغرب البتة وفي هذه المرحلة بالذات – أن نرى البون الشاسع في موازين القوى، وبُعد البشرية عن تلمس طريق الخلاص، إذ نراها ماضية في اتباع الهوى وفي تعنت غريب يقول تعالى **جَأْ بِ بِ بِ بِ بِ (١)**.

فالمطلوب هو استشعار المسلمين فيما يعايشونه من أحداث وأزمات والابتعاد عن السلبية والانهازامية.

ومن حق الجيل أن يرى قيم وثوابت الدين واضحة عند الأزمات بحيث تنزل هذه الثوابت والقيم إلى أرض الواقع لأن المسلمين سئموا التنظير من غير تطبيق، ووصف الداء من غير دواء، وكثرة الكلام والأقوال من غير عمل وفعال، والتغني بالأمجاد والرموز، من غير إقتداء بهم. ورؤية قيم الذين وثابته واضحة تكون من خلال السجل التاريخي المشرق وهو ((الموقف الإيجابي)) أو ((إيجابية الموقف)).

وعلى ما تقدم فبحثنا يتضمن بعد المقدمة ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: معنى الإيجابية في الموقف .

المبحث الثاني : الموقف الشرعي عند الأزمات وفوائدها .

المبحث الثالث: نماذج من المواقف الإيجابية الشرعية عند الأزمات .

الخاتمة : (أهم التوصيات والمقترحات).

المبحث الأول: معنى الإيجابية في الموقف:

مما لا شك فيه إن الإيجابية سواء كانت فردية أم جماعية تحمل في طياتها نوعاً من التجديد والأمة تحتاج إلى نماذج يحملون الإيجابية والمبادرة بأنفسهم – من غير انتظار للأوامر – من خلال مواقفهم غير منتظرين أن يسلك الطريق سواهم ، وذلك في كل أزمة .

وأوضح آية تحدد معنى الإيجابية هي قوله تعالى ﴿ ٥ ٤ ٣ ٢ ١ ﴾ **كُنْ كُنْ**

(٢)

والمعنى واضح جداً في أمر الله تعالى لنبيه (ﷺ) في عدم تكليف احد إلا نفسه، وان لا ينتظر إعانة من احد .

ولعل كذلك إحدى الصور البليغة التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم قصة الهدهد مع نبي الله سليمان عليه السلام .. إذ يبرز معنى الإيجابية واضحاً ، فقد سار الهدهد لوحده دون تكليف سابق ، أو تنفيذ لأمر صادر ، وجلب خبراً للقيادة النبوية ، أدى هنا إلى دخول أمة كاملة في الإسلام .(٣)

وقد وصف القرآن الكريم عمل الهدهد بقوله ﴿ ٤ ٣ ٢ ١ ﴾ .. **ج (٤)**.

والأمم يبني على أنقاضها طموحات لا تتحقق إلا بالإيجابية والمبادرة ، ومع مرور الزمن قد يبدو للبعض أنه من الصعوبة بمكان تحقيقها ، وللبعض الآخر قد تبدو هدفاً سامياً لا بد من تحقيقه والوصول إليه بكل الوسائل المتاحة والممكنة .

أما الإيجابية في سيرة النبي (ﷺ) ، فالحديث عنها طويل جداً غير أنني أشير إلى القصة المشهورة التي تروي لنا انه : ((فرع أهل المدينة ذات ليلة ، فانطلق الناس قِبَل الصوت فاستقبلهم النبي عليه

الصلاة والسلام قد سبق الناس وهو يقول :- لم تراعوا ،لم تراعوا - وهو على فرس لأبي طلحة
عُري وفي عنقه سيف)) .(٥)

فدلّ الحديث على أن النبي (ﷺ) سبق الناس إلى استطلاع الأمر .

ومما يدلّ على إيجابية الموقف عند الصحابة (رضي الله عنهم) ما صنعه البراء بن مالك في قصة الحائط
الشهيرة ، يوم أن قعد على ترس وقال : ((ارفعوني برماحكم فألقوني إليهم)) فألقوه ثم أدركوه
بعد ،وقد قتل منهم عشرة ،وجرح يومئذ بضعاً وثمانين جراحة.(٦)

والإيجابية من ثمرات التربية العملية الجادة ،وعلى العكس من الاتكالية وانعدام الإيجابية التي هي
من ثمرات التربية السلبية السائدة في مجتمعاتنا ، بل أقول :حتى العاملين للإسلام أصبحوا
ينتظرون الأوامر ولا يعمل إلا من خلال توجيه محدد، وبالتالي تعطلت الطاقات الفعالة
،وصارت الصحوة تفكر من خلال عقول محددة فحسب .

فصاحب المواقف الإيجابية في حياته يرى أن جدية الهدف وصدق العمل يتطلب منه ألا تكون
الاستشارة والاستفادة من آراء الآخرين حاجزاً وهمياً ، وعائقاً يحول بينه وبين العمل ... فينطلق
ويعمل ويبادر ويفكر محيطاً ذلك كله بأسوار الاستشارة جاعلاً إياه في دائرة الانضباط والالتزام
(٧).

– إن الصمود والاستمرارية والثقة بالنفس وعدم الخوف من الإخفاق ،أعمدة أساسية في خلق
الإيجابية ،وعبادات الإسلام وتكاليفه تصب جميعها في تنمية إرادة الصمود حيث يبقى المسلم
يلحق ويطلب هدفاً واحداً طول حياته بفعل الخيرات وترك المنكرات ، هذا الهدف هو: نيل رضا
الله تبارك وتعالى.

فالإيجابي هو الذي يملك الإرادة القوية للاستمرار في طريق التغيير والبناء والإصلاح ... مهما
كانت التكاليف.

المبحث الثاني : الموقف الشرعي عند الأزمات وفوائدها:

إن مثل من يريد أن يعيش في دعة وراحة ونوم وهدوء ؛ والكروب والشدائد والأزمات تشد من وطنتها ، بل تكاد تجعل النهار ليلاً حزيناً ، والهدوء اكتئاباً ... إن مثل هذا كمثل من جلس على سكة الحديد وأغمض عينيه وأصم أذنيه ويطن بذلك انه ... زال الخطر!! والحقيقة معلومة .. والنتيجة محتومة ... إلا أن يشاء الله غير ذلك .

والأمة لا تنفك في كل زمن عن أزمة تكون لها كالصدمة الكهربائية تنفضها وتحركها ، وتأتي الأزمة وفي طياتها خيرٌ للأمة .

— فإحياء الأمة من مواتها ، وبعثها من غفوتها ونومها ، وتخليصها من الأزمات ، هذا من عمل ووظيفة الايجابيين ، أصحاب المواقف الكبيرة في الوقت الصعب .

المطلب الأول : الموقف الشرعي عند الأزمات :

وَيُمَثِّلُ الموقف الشرعي عند الأزمات في أمور _ من أهمها :-

١ . الإستعانة بالله تعالى :- عندما يتيقن المسلم بأن الكون لله ، وأن الخلق خلقه ، والأمر أمره ، يوجب عليه التوجه إلى الملك المدبّر لصلاح شؤون الدنيا والدين، وذلك هو الباب الوحيد الذي من ضلّ عنه لم يجد مخرجاً ولا خلاصاً ، لأن الله يكله إلى نفسه رمز العجز والضعف ؛ فلا غنى للعبد عن عون الله طرفة عين ، ولذا أمر الله تعالى العبد أن يقول **چ ت ت ت ت ت ت چ**.

وهكذا سائر شؤون الناس ما لم يستعن فيه بربه تفرّق عليه أمره ، واستعصى عليه أسهل الأمور، فكيف بالفتن والشدائد والأزمات !!!

فـ (أقرب باب دخل منه العبد على الله تعالى هو الإفلاس ! فلا يرى لنفسه حالاً ولا مقاماً ولا سبباً يتعلق به ولا وسيلة منه يمتنّ بها ، بل يدخل على الله من باب الافتقار الصرف والإفلاس المحض ، دخول من كسر الفقر والمسكنة قلبه حتى وصلت تلك الكسرة إلى سويداء قلبه ، فانصدع وشملته الكسرة من كل جهاته) . (٨)

— والأمثلة على هذا كثيرة : فاستغاثات رسول الله ﷺ ببدر والخندق واضحة وشاهدة . (٩)

٢. الإستشعار بالأزمة :- فالتفاعل المطلوب مع الأزمة هو التفاعل الإيجابي الذي يدفعنا ويحركنا ويرفع من وعينا في اتخاذ المواقف الإيجابية، وليس هو الانشغال بردود الأفعال أو انتظار الضربات ، وهاتان لا ينتهيان في ظل توالي الأحداث ، ذلك لأن الخصم قد يُحوّل مسار الأزمة لصالحه فيجرنا إلى ساحة لا نحسن النزول فيها ، أو يشغلنا بقضية تلهينا عن رسالتنا أو لا تخدم أهدافنا .

إن الدين هو القيام لله بما أمر به ، وكما هو معلوم — أصولياً — أن تارك حقوق الله التي تجب عليه أسوأ حالاً عند الله ورسوله من مرتكب المعصية ، وترك الأمر أعظم من ارتكاب النهي من أكثر من ثلاثين وجهاً ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية في بعض تصانيفه (١٠).

وهذا الأمر يفرض علينا استشعار الأزمة واتخاذ ما ينبغي ، وإلا فأى دين وأي خير فيمن يرى محارم الله تُنتهك ، وحدوده تُضاع ، ودين يُترك وهو بارد القلب ساكت اللسان شيطان أخرس ، كما إن المتكلم بالباطل شيطان ناطق .

وما بليّة الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلّم لهم مآكلهم ورياستهم فلا مبالاة بما جرى على الدين ، ولو نوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله ، بدّل وتبدّل ، وجد واجتهد ، واستعمل مراتب الإنكار الثلاث بحسب وسعه ، وكل هذه من علامات موت القلب ، لأن القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ورسوله أقوى ، وانتصاره للدين أكمل .

فاستثمارنا الأزمة هو استشعارنا بها ، وإن نتعامل معها بذكاء من حيث :

أ- التخطيط لمواجهة الأزمة بحيث لا يُلغى الأصل بذريعة الطوارئ ، والتحلي بالعقل والتؤدة ، وحساب المصالح الشرعية الحقيقية لا الوهمية بدقة ، وليشعر كل فرد في الأمة يعي مسؤوليته أنه على ثغر ، فليحذر أن يُوتى الإسلام من قبّله .

ب- تجاوز ضغط الشائعات والتحرر من أسرها بإحياء منهج تلقي الأخبار وروايتها ، ومعرفة أنّ من الكذب والإثم أن ينقل الإنسان ويتحدّث بكل ما سمع دون تبيين وتثبيت

و((كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع)). (١١)

ج - الإيجابية في التعامل مع الأزمة : إن اعتزال الناس زمن الفتنة إنما يكون للضعفاء العاجزين عن فعل شيء وليس كذلك أهل العلم والدعوة والفكر الصحيح ، وإذا كان يجب عليهم السعي في شؤون الناس عموماً ، فذلك يؤكد عليهم زمن الفتنة التي هي معضلة كبيرة تفتقر لجهود ضخمة متكافئة سعياً في إزالتها أو التخفيف من وطأتها .
- يقول الإمام النووي - رحمه الله - في شرحه لحديث النبي ﷺ : ((خير الناس في الفتن رجل أخذ بعنان فرسه خلف أعداء الله يخيفهم ويخفونه ، أو رجل منعزل في بادية يؤدي حق الله تعالى الذي عليه)) .

قال : ((فيه بيان فضل العزلة في أيام الفتن ، إلا أن يكون له قوة على إزالة الفتن ، فيلزمه السعي في إزالتها عيناً وكفاية)) . (١٢)

وصاحب القوة على إزالتها هم أهل الدعوة والعلم والفكر والتربية وأصحاب القدرات والطاقات القيادية ، وكل من له قدرة على شيء توجب عليه القيام به ، ولا خيار في ذلك ، ولا يجوز له التهرب من المسؤولية المتعلقة به ، ولا التعلل بتقاعس الآخرين ولا الاحتجاج بالقدر... إلى آخر قائمة فنون التهرب من المسؤولية . (١٣)

وأسهل شيء على الإنسان أن يُلقى باللائمة على غيره ليبري ساحته ، ويتخلص من تائب الضمير ، وحالة الشعور بالخطأ التي تقلقه وتذهب راحته وتؤثر في اتزانه .
ونسلم كثيراً : تساؤلات عن دور العلماء والقادة وهذه التساؤلات لها ما يسوغها ، لكن هل تخاذل فئة عن واجبها يُجيز للآخرين مزيداً من التخاذل والانسحاب والتقصير !!؟
إن رعاية الأمة وإصلاح شأنها وقيادتها زمن فتنتها واجب كبير لا يكفي فيه دور شريحة دون أخرى .

٣. التفكير العميق في الخروج من الأزمة :- وهذا الواجب يتطلب منا أموراً، أهمها:-

أ- قراءة التاريخ ضرورة ملحة لمعرفة الفتن التي مرت بالمسلمين وأسبابها ، وكيف استطاعوا تجاوزها والخروج منها ، وخاصة قراءة غزو الصليبيين والتتار .
ب - ضرورة إحياء مفهوم الأخوة الإيمانية ولوازمها .

ج - الإسهام في صناعة الرموز الفاعلة لتكون نماذج يُقتدى بها في وقت تضعف فيه الفاعلية ، ويستشري التخاذل ، ويكثر المتطلعون الذين ينتظرون ((القائد المنتظر!!!)).
د - ضرورة السعي في استثمار الحدث ، والحذر من تضييع الفرصة السانحة كما سماها بعض المفكرين .

٤. الثبات والتثبيت:— يقول الله تعالى ﴿ ١٤ ﴾

والأزمات عواصف تهزّ الأمة ، ولا بدّ للأمة من تثبيت . والإيمان يرتفع وينخفض ، والعزيمة تشتدّ وترتخي ، وقد يستوحش لقلّة السالكين ؛ فالكل يحتاج إلى العلماء ؛ والعوام يحتاجون إلى تثبيت .

وإذا كانت الكلمة والنصيحة تعني شيئاً وقت الرخاء فهي أعظم وقت الأزمة .
في ترجمة الإمام أحمد يوم المحنة والأزمة ((قال صالح بن أحمد :سمعت أبي يقول:صيرنا إلى الرحبة ، ورحلنا منها في جوف الليل ، فعرض لنا رجل ، فقال أيكم أحمد بن حنبل؟ فقالوا : هذا ، فقال: يا أحمد ؛إن يفتلك الحقّ مت شهيداً ؛ وإن عشت عشت حميداً)) فيقول الإمام أحمد : ما سمعت كلمة منذ وقعت في هذا الأمر أقوى من كلمة هذا الأعرابي ... حيث قوى قلبي.(١٥).
فكانت أزمة ((كلمة الحق)) جاء فيها الأعرابي الضعيف - لم يحقر نفسه - يثبّت فيها علم الأمة .. فلم تكن هناك كلمة أقوى منها في قلب أحمد بن حنبل .

وفي الأزمات يكثر السؤال ، والقليل والقال ، وتنفرع الأسئلة وتتزايد ، وتنفجر الأسئلة عند الموقف الواحد.

والأمة تنتظر من القدوات والرموز والعلماء والمربين لتسمع الكلمة ، والكلمة هنا غالبية لأنها قد تكلف الإنسان الشيء الكثير ولأنها قد تخالف هواه وهوى غيره .
وحينئذٍ فلا بدّ من قيام الله بتثبيت الأمة وتوضيح القضية والأزمة خاصة عندما تُمسّ الأمة في عقيدتها وثوابتها .

وأول أزمة بعد وفاة رسول الله (ﷺ) هي الأزمة الكبيرة التي اشتبكت فيها السياسة الخارجية بالسياسة الداخلية بمسائل التوحيد والفقہ ، فيأتي علم الأمة أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) فيقذف بكلمته ويثبت بها الأمة ويوضح بها الدين. (١٦)

إنّ المعاني المجردة من التطبيق قد يتقدم العلماء وغيرهم في تنظيرها فيرفعون ويخفضون ويوجبون ويحرمون ويحكمون ويرسمون المواقف ، فإذا وقعت الأزمة ووجب أن تُترجم تلك المعاني إلى مواقف إلى حركة إلى ثمن إلى نعم أو لا ، فهنا تكعُّ النفوس أو يتغير الموقف خوفاً أو ضعفاً أو جهالة إلا من شاء الله.

وقد تكون المسألة بغاية الوضوح وقت الرخاء، فإذا وقعت الواقعة فكأنما غشيتها غمامة.
٥. تجميع الصفوف:- إذا كانت اليد الواحدة لا تُصفق، فإن الأيدي المتعددة — ما لم تضبط — تعترك وتتخاصم.

فحتاج إذن إلى رصّ الصفوف والقلوب والجهود، إلى نشر أدب الخلاف وفقه الأخوة مع قاموس نظيف للألفاظ ، ونحتاج أيضاً إلى النصح والتصحيح وبيان الحق والصبر عليه. وكذلك الابتعاد عن المعارك الهامشية حول إسم ورمز، أو الأنانية الفكرية الضيقة، والابتعاد عن توزيع التهم ... كل هذا لا يمنع من الرجوع إلى أهل العلم ورعاية حقهم وحفظ سابقتهم ولاحتفهم ونصحهم وعتابهم بالحسنى

ونتمنى أن تفيء كل فئة إلى أكبر رأس لها — من أهل العلم — تحسبه والله حسيبه — يخشى الله ، ويعلم عن الله ، وأنه على الحق ، فتستمع له ، وترد إليه ، وتصدر عنه ، وتقرب منه ، وتناقشه فيما ترى .

فالأزمة أزمة الجميع، وبالتالي العمل للأمة واجب الجميع، والأمة تحتاج كل الطاقات. فينبغي أن نوظف الأمة بالكلمة التي تستنهض همتها، وان نتغاضى شيئاً ما عن الخلافات الشكلية، وتهذئة لهجة العتاب وغير ذلك.

٦- وعي الأزمة :- الأزمة صورة توضيحية تجلب انتباه الناس، فلا بد لنا أن نشيع الوعي، وأول الوعي أن نشعر ببعدها عن الله وحاجتنا إليه.

- ٥- نبهتنا الأزمات إلى أخطاء في الأنظمة والعقائد ، ولهذا دور مهم في علاجها وتفادي آثارها .
- ٦- وكذلك نبهتنا الأزمات إلى أخطاء في أصول اعتقادية كالولاء والبراء ، فظهر أن ولاء بعض أفراد الأمة ليس لله ، واضطرب في نفوسهم التوكل على الله ، واختل لديهم الخوف والرجاء .
- ٧- إن الأمة حين تربّي أبناءها وفق مرضاة الله، وتبني في نفوسهم صرح الإيمان، فإن الأزمات - مهما كثرت - لن تهزمهم، ولن تنال من عزتهم، ولن تقوى على تغيير مبادئهم.
- ٨- من أعظم المصالح التي تحصل بسبب الأزمات هو استخراج التضرع والدعاء .
وبعد ... فالوائقون بنصر الله تعالى لدينه وأوليائه هم الذين يستطيعون أن ينتفعوا من الأزمة ويعيدوا صياغة التاريخ ويعيدوا للأمة أمجادها .

المبحث الثالث : نماذج من المواقف الإيجابية الشرعية عند الأزمات :

لقد مضت سنة الله تثبت أن رجال الحق قليلون ، وإن الحق على دوام محارب ، وتثبت أيضا أن هذا الحق لا بدّ سيظهر ولو بعد حين .
واعتقد أن لفظ (رجل) في القرآن الكريم لم يأت هكذا ، بل أتى وصحبه موقف .
إذن فالرجل مواقف ، واشتدت حاجتنا - في هذه الظروف الراهنة إلى استلهاهم بعض المواقف الإيجابية التي تذكّرنا بأمجاد وتضحيات الرجال واستحضار مواقفهم في نصره الدين .
ولقد وعى أصحاب هذه المواقف أن واجبهم في هذه الحياة أن يكونوا ضمير هذه الأمة الحي ، ولسانها الناطق ، الذي أنيط به أن يميّز بين الخبيث من الطيب ، والباطل من الحق ، والظلمات من النور ، وخاصة عند الأزمات والنوازل .
وهذه المواقف تجسّد - بالحقيقة - لنا صفة الإيجابية المبنية على أساس الإسلام . الإيجابية التي يفرّ منها السلبيون البعيدون عن الواقع ، فالإسلام لا يسمح لنا أن ننسى أو نتناسى الواقع . وسأكتفي في هذه الوريقات بذكر بعض المواقف الإيجابية من مواقف كثيرة لحياة ثلاثة من الأئمة هم : (أحمد بن حنبل ، ابن تيمية ، العز بن عبد السلام) .

١. الإمام أحمد بن حنبل : قضية شغلت الناس في عصره ، وبدعة استظهر على القول بها جماعة من أهل الأهواء بقوة السلطان وامتحنوا الناس ، وأرادوا أن يحملوهم عليها قسراً ، ألا وهي بدعة القول ((بخلق القرآن)) .

ولقد وقف الإمام احمد موقفاً جريئاً وثابتاً من هذه القضية ولست بصدد تحليل ظروف المحنة ، وما كانت ستؤدي إليه النظريات الاعتزالية والعقلية ؛ فيما لو هيمنت على أسس النظر والاستدلال عند المسلمين .

ولكن أقول : إن بقاء الإمام احمد صابراً محتسباً يُسام العذاب في سبيل عقيدته ، لا يزلزله الترهيب ولا يستخفه الترغيب ؛ أمر لا يدعو إلى الإعجاب فقط ؛ بل يدعو للتساؤل عن سبب هذا الثبات على الرأي ؛ على الرغم من أن كثيراً من علماء عصره آثروا السلامة ، ووافقوا ما يريده الخليفة وبطانته تقية .

وقد يقال : أما كان لأحمد بن حنبل مندوحة فيما سلكه علماء عصره من التقيّة ، وأن يداري الخليفة وبطانته بقول ؛ وقلبه مطمئن بخلافه ، ويجني من وراء ذلك الموقف رضا السلطان عنه ، واستمرار دروسه وانتفاع الناس بعلمه ؟ .

فكيف يتصور بمن هو مثل الإمام أحمد أن يقف هذا الموقف المتخاذل الذي يمكن أن ينتج عنه افتتان كثير من العامة به ، وقد كان هذا المعنى حاضراً في ذهن الإمام أحمد حينما دخل عليه بعض الناس ؛ وهو محبوس بالرقّة ، فجعلوا يُذكرونه ما يُروى في التقيّة من الأحاديث ، فقال : كيف تصنعون بحديث خَبَاب ((إن من كان قبلكم كان يُنشر بالمناشير ثم لا يصدّه ذلك عن دينه)) ؟ .

وقال له المروزي لما أرادوا أن يقدّموه للضرب : يا أستاذتُ **ثُججِ جُججِ جُججِ** فقال يا مروزي اخرج ، انظر أي شيء ترى ؟ قال : فخرجت إلى رحبة دار الخليفة فرأيت خلقاً من الناس لا يُحصي عددهم إلا الله عز وجل ؛ والصحف بأيديهم ، والأقلام والمحابر في أذرعهم ، فقال لهم المروزي : أي شيء تعلمون ؟ فقالوا : ننظر ما يقول أحمد فنكتبه ؛ فقال المروزي :

مكانكم ، فدخل إلى أحمد ، وقال له : رأيت قوماً بأيديهم الصحف والأقلام ينتظرون ما تقول فيكتبونه ، فقال : يا مروزي أضلّ هؤلاء كلّهم ؟ أقتل نفسي ولا أضلّ هؤلاء كلّهم . قلت (أي المروزي) : هذا رجل هانت عليه نفسه في الله عز وجل فبذلها . وهنا يتّضح معنى شهادة علي بن المديني التي قال فيها : ((إنّ الله عز وجل أعزّ هذا الدين برجلين ليس لهما ثالث : أبو بكر الصديق يوم الردة ، وأحمد بن حنبل يوم المحنة)) . (١٩) يقول الشيخ أحمد شاكر تعليقا على موقف الإمام أحمد : -

((أما أولوا العزم من الأئمة الهداة فإنهم يأخذون بالعزيمة، ويحتلمون الأذى ويثبتون وفي سبيل الله ما يلقون ؛ ولو أنهم أخذوا بالتقيّة ، واستسأغوا الرخصة لظلّ الناس من ورائهم يفتنون بهم ولا يعلمون أن هذه تقيّة .

وقد أتى المسلمون من ضعف علمائهم في مواقف الحق ... لا يجاملون الملوك والحكام فقط !! بل يجاملون كل من طلبوا منه نفعاً أو خافوا منه ضرراً في الحقيّر والجليل من أمر الدنيا...؛ ولقد قال رجل من أئمة هذا العصر المهتدين ((كأن المسلمين لم يبلغهم من هداية كتابهم فيما يغشاهم من ظلمات الحوادث غير قوله تعالى ﴿ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ﴾ ثم أصيبوا بجنون التأويل فيما سوى ذلك)) (٢٠).

أراد هذا الإمام المبارك أن يُضحّي بنفسه ولا يفسد عقائد الناس لأنه ممّن يُقتدى به !! . ومما قاله الإمام الذهبي في شأن محنة الإمام أحمد ((الصدع بالحق عظيم ؛ يحتاج إلى قوة وإخلاص ، فالمخلص بلا قوة يعجز عن القيام به ، والقوي بلا إخلاص يُخذل ، فمن قام بهما كاملاً فهو صديق ، ومن ضَعُفَ فلا أقلّ من التألّم والإنكار بالقلب ؛ وليس وراء ذلك إيمان ، فلا قوة إلا بالله)) . (٢١)

ولقد كان الإمام أحمد بن حنبل رجلاً لبيّناً ، لكن لما رأى الناس يُجيبون ويُعرضون عن الحقّ ، عندئذٍ ذهب ذلك اللين ، وانتفخت أوداجه ، واحمرّت عيناه . (٢٢).

٢ . الإمام ابن تيمية :

إيجابية الموقف الشرعي عند الأزمات
د.حسين علي أحمد

المواقف الإيجابية عند شيخ الإسلام كثيرة ، ولعلّ من أعظم المواقف موقفه مع التتار ، حين كان يحرض الناس على قتالهم ومنازلتهم ، ويُباشِر القتال بنفسه ، أو يصدر الفتاوى التي تُطمئن صدور الناس .

فهو – رحمه الله – يجمع بين الأمرين في موقفه مع التتار ؛ فقد تردّد الناس في حالهم فأفتى بكفرهم ووجوب قتالهم وقال : ((وقاتل هذا الضرب واجب بإجماع المسلمين ، وما يشكّ في ذلك من عرف دين الإسلام وعرف حقيقة أمرهم)) (٢٣) .

وقام في قتالهم وقال للناس :- ((إذا رأيتُموني في ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني)) (٢٤) .

بل يذهب بنفسه إلى ملك التتار ، ومما جاء في مقابلته قوله :- ((أنت تزعم انك مسلم ، ومعك قاضٍ وإمام ... فغزوتنا ؛ وأبوك وجدك كانا كافرين وما عملا الذي عملت ، عاهدا فوقيا ، وأنت عاهدت فغدرت ، وقلت فما وفيت ...)) ثم يخرج من بين يديه مكرماً معزّزاً . بذل نفسه في طلب حقن دماء المسلمين فبلّغه الله ما أراه ، وكان سبباً بتخليص غالب أسرى المسلمين من أيديهم .

ويذهب الشيخ إلى مصر لمقابلة السلطان ناصر ويكلّمه كلاماً شديداً فيقول له : ((إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمائته ؛ أقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميه)) .

وكان – رحمه الله – يقول : ((لن يخافَ الرجلُ غيرَ الله إلا لمرض في قلبه)) (٢٥) .
فهذه مواقف جريئة ؛ من الشجاعة والجرأة في تبيان الحقّ ، وإنكار المنكر ، ((ومن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر)) (٢٦) .

٣. الإمام العز بن عبد السلام :

هذا الرجل الذي عُرف بأنه الإمام الذي نذر نفسه للجهر بكلمة الحقّ .

ذكر السبكي في طبقاته أن الشيخ عز الدين طلع إلى السلطان في يوم العيد إلى القلعة (في القاهرة) فشاهد العسكر مصطفيين بين يديه ، فالتفت الشيخ إلى السلطان وناداه : يا أيوب ؛ ما حجتك عند الله إذا قال لك : ألم أبوء لك ملك مصر ثم تُبيح فيها الخمر؟ فقال :

هل جرى ذلك؟ فقال الشيخ: نعم، الحانة الفلانية تُباع فيها الخمر، فقال: يا شيخنا هذا من أيام أبي، فقال الشيخ: أنت من الذين يقولون ﴿ي ي ي ي ي ي ي ي ي ي ي ي﴾، فأمر السلطان بإقفال الحانة على الفور، ثم يسأل الشيخ أحذ تلاميذه: أما خفته؟! قال الشيخ: ((والله يا بُني استحضررت هيبة الله تعالى فصار السلطان أمامي كالقط)) (٢٧).

ونحن حين ننقل هذه المواقف عن هؤلاء الرجال العلماء؛ لا ندعي لهم ولا لغيرهم من العلماء العصمة، ولا ننزّهم عن الخطأ في السلوك والاجتهاد؛ ولكي نودّ أن نستخلص فكرة محدّدة من خلال كل هذا ألا وهي: -

أن العالم الذي يبقى صده مدّوياً مجلجلاً هو ذلك الذي يدفعه التحرق والتألم على واقع أمته إلى المشاركة الفعلية في مشكلاتها، والاكتماء بنار هذه المشكلات، فهذه هي وظيفة القادة والعلماء الذين يمثلون روح الأمة، والرواد الذين يسرون بها نحو الغاية؛ حين تشتبه السُّبل، وتعمُّ الفتن، وتكثر الدعوى، ويعجب كل ذي رأي برأيه.

إن المواقف الإيجابية للأئمة الأعلام كثيرة؛ ولعلّ ما ذكرنا من مواقف تكون حافزاً لنا إلى بيان المسلك الشرعي تجاه المستجدات، فما أكثر الأحداث والنوازل والأزمات في هذا العصر التي تحتاج إلى مواقف عملية واضحة؛ فالتتصل والانزواء ليس حلاً؛ ولا تبرأ به الذمة.

فلا بدّ إذن أن يستشعر المسلمون - كل المسلمين - ما يعايشونه من أحداث وأزمات... تلك التي علمتنا بأنه ليس ثمة مكان للكسالى، ولا وقت للدعة والإخلاق للراحة، بل سباق مستعر في ميادين السؤدد؛ أو على الأقل إبداء الرأي والبحث عن موقع للاستقلال الفكري.

إن مشكلة جّل المسلمين ليست في الفكر المحدود؛ بل في أنهم لا يفكرون؛ فتراهم يُصدرون ملكاتهم ويتسولون فتات الآراء والتوجهات من تحت موائد اللثام.

لقد مضت الأمة تنتكّب سبل المبادئ إزاء هذه الأزمات التي تُدار منذ قرون بيد شياطين من الإنس؛ ويظل السؤال المؤلم: من سينبّه المكلمة إلى ضرورة الوعي بدينها ومبادئها؟ ومتى يتم ذلك؟ إن من الضروري أن نضع مشكلاتنا تحت مجهر التشريع بمعاييره

إيجابية الموقف الشرعي عند الأزمات
د.حسين علي أحمد

المعصومة كي ننجح في إيجاد مرجعية موقرة في نفوس الجيل القادم ؛ مؤمنين بأنه ليس من المتعين أن نشاهد نتائج ذلك بأنفسنا ، فنحن في الحقّ متعبدون بالبلاغ فقط ؛ وأما مترتباته فهي بيد الباري سبحانه وتعالى يُخضعها لحكمٍ عديدة .

لقد سئمت الأجيال المسلمة سكوت الصالحين بحجة العجز عن التغيير أو الضعف في التأثير ؛ ولست أدري بالضبط متى يفقه أولئك أنّ مجرد الإصرار على المبدأ ضماناً أكيدة لثقة الجماهير ؛ ودعامة حية للاقتداء وإيمان خالد بعدالة قضايانا وأهليتها في سباق التصارع من أجل النصر والتمكين .
إنّ من حقّ الجيل أن يرى قيم الدين واضحة في الحدث الممارس ؛ يطبّقها المسلمون ويدعو إليها الدعاة والمصلحون .

_ أو ليس من حق كل مسلم أن تُقرأ الصورة أمامه واضحة؟! .
_ أو ليس من حق كل مسلم أن يطلع على النسخة الأصلية من عمليات التشكيك في ثوابت الدين لظرف مفروض ، ومن المسلمين مرفوض؟! .
_ أو ليس من حق كل المسلمين أن يعلموا لِمَ كُتِبَ على المخلصين دفع فاتورة الرأي والكلمة الهادفة في زمن التطويل والطنطنة؟!
_ أو ليس من حقّ الجيل القادم أن يعلم - على الأقل - ثوابت وجوده ، ومعالم الإرث الثابت كيما يواصل مسيره؟! .

بلى ؛ إنّ ذلك حقّ مشاع لهم جميعاً .
لقد آن تحقيق كل ذلك من خلال التعاون الجمعي البعيد عن التفرد ؛ فإنّ من الخطأ أن نظنّ أنّ تلك مهمة طائفة تخصصية بعينها ، أو كوكبة فكرية مسماة ؛ لأنّ الدين بلاغ الجميع ، وقضية كل مسلم .

وإذا كنا نعتقد أنّ ذلك البلاغ يُكفّف الدعوة والصحة ما لا طاقة لها به فنطرح حلول سياسة النعمة ؛ فإننا لم نزل في سوء ظنّ بأهل الإسلام وجماهيره .

إنّ الأمم الكافرة تجد في قوة جماهيرها ما يشجعها على المطالبة بحقوقها ؛ ورفض كل واقع لا يسرّها، أفترى أن المسلمين أصحاب الهدف السامي النبيل يجبنون عن التضحية في سبيل تحقيق البلاغ الإلهي؟! إنّ البلاغ للجيل مهمة خطيرة يجب أن تعنينا جميعاً؛ مشاركة في الإصلاح ؛ وسداً للثغرات ؛ حتى تشمل الداعية في مجلس توعيته ، والأستاذ في قاعة درسه ، والأب في بيته ، والأديب في ساحة قلمه ، والطبيب في مستشفى وعيادته ، والصانع في مصنعه ، والجرف في حرفته ، والحارث في حقله ، والراعي في مراعي سهله وعلى سفوح جبله ... وتلك رسالة الإسلام للبشرية جمعاء .

الخاتمة:

بعد حمد الله تعالى وشكره على توفيقه إياي لإتمام هذا البحث المتواضع، أسجل أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها، رادفاً إياها بما بدا لي من توصيات ومقترحات .

النتائج:

١. الثقة بالله والتوكل عليه وإخلاص النية قبل البدء في أي أمر من الأمور .
٢. دراسة الموقف وجوانبه حتى لا تذهب الجهود سُدى .
٣. الثقة بالنفس والتخلص من الهزيمة النفسية ، وترك الخوف من الإخفاق الذي طالما قضم مشاريع ؛ وقوّض من عزائم .
٤. سمو الأهداف وعلو الهمة مما يجعل الإيجابية تحقّق أفضل النتائج .
٥. التربية الجادة التي من ثمارها - كما سبق - شعور المرء بالمسؤولية الملقاة على عاتقه مما يجعل المرء مبادراً بطبيعته .
٦. الجرأة المنضبطة والإقدام المدروس ، والابتعاد عن الخوف والتهوّر ؛ مع العلم والمعرفة لحدود الإمكانيات والمواهب والعمل بموجبها .

٧. التضحية بالمصالح الذاتية لمصلحة الأمة .
٨. وأخيراً : العلم بأن المشكلة ليست في الخطأ ، وإنما المشكلة عدم العمل ، وأما من يعمل ويُبادر فإنه سوف يُخطئ - بلا شك - ولكنه خطأ في سلسلة من الإصابات والنجاحات ؛ والمحاولة والتكرار سبيل للنجاح والتميز .

التوصيات:

١. تحلّي المربين والأساتذة ورجال الأمة ودعاتها بروح الإيجابية ؛ وكونهم قدوات عملية صالحة .
٢. حتّ المربي لمن دونه على المسابقة لأوجه الخير والمبادرة إليها دون انتظار الآخرين .
٣. تشجيع أصحاب المواقف الإيجابية والثناء عليهم وإظهار صنيعهم ؛ وجعل إيجابيتهم سبباً في حتّ الآخرين على الاقتداء بهم .
٤. تقبّل الأخطاء الواقعة من الإيجابيين واحتوائها ، ومحاولة التخفيف من آثارها ، وعدم تعنيف فاعليها .
٥. أهمية عدم تضخيم العوائق أمام الإيجابية ، ومحاولة التغلب عليها ؛ وعدم الوقوف عندها طويلاً .
٦. عقد الجلسات والندوات لبحث سبل إحياء روح الإيجابية ومجالاتها .
- والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات -
وصلّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم .

هوامش البحث ومصادره ومراجعته:

١. سورة الجاثية : ٢٣
٢. سورة النساء : ٨٤
٣. يُنظر، الإيجابية في حياة الداعية، يوسف الحسن: ٨، ط١، دار المنطق، دبي، ١٩٩٢م .

٤. سورة النمل : ٢٢ - ٢٣ .
٥. صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل البخاري : ٥٣٤ (٢٩٠٨) ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠١م .
٦. سير أعلام النبلاء ، الذهبي : ٩٣/٢ ، مكتبة الصفا ، مصر ، ٢٠٠٣م .
٧. يُنظر ، التربية الجادة ضرورة ، محمد الدويش : ٤٢ - ٤٣ ، ط٤ ، دار الوطن ، الرياض ، ١٩٩٨م .
٨. الوابل الصيّب من الكلم الطيب ، ابن قيم الجوزية : ٨ ، ط١ ، جمعية إحياء التراث الإسلامي ، الكويت ، ١٩٩٨م .
٩. يُنظر تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ٢٩٢/٢ ، ط١ ، جمعية التراث الإسلامي ، الكويت ، ١٩٩٨م . البداية والنهاية ، ابن كثير : ٨٢/٥ ، دار الحديث ، مصر ، ٢٠٠٤م . السيرة النبوية ، ابن هشام : ١٦٨/٣ ، ط٢ ، دار ابن كثير ، دمشق ، ٢٠٠٣م .
١٠. إعلام الموقعين عن رب العالمين ، ابن قيم الجوزية : ١٧٧/٢ ، ط١ ، دار البيان ، دمشق ، ٢٠٠٠م .
١١. صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج النيسابوري : ١٥/١ (٦) ، ط١ ، مؤسسة المختار ، القاهرة ، ٢٠٠٥م .
١٢. فيض القدير شرح الجامع الصغير ، المناوي : ٦٤١/٣ ، ط١ ، مطبعة مصطفى الحلبي ، ١٣٥٦هـ .
١٣. شريط بعنوان (فن التهرب من المسؤولية) - محمد الدويش .
١٤. سورة الأنفال : ٤٥ .
١٥. سير أعلام النبلاء : ٢٤١/١١ .
١٦. صحيح البخاري : ٢٠٥/٥ (١٣١٢) .
١٧. سورة البقرة : ١٢٠ .
١٨. رواه البخاري : ٣٧٤/١٧ (٥٢١٠) .
١٩. سير أعلام النبلاء : ٢٥٤/١١ .

إيجابية الموقف الشرعي عند الأزمات
د.حسين علي أحمد

٢٠. مقدمة مسند الإمام أحمد بن حنبل ، أحمد محمد شاكر : ١٠٨/١ (هامش) ، ط١، دار الحديث ، مصر ، ١٩٩٥م .
٢١. سير أعلام النبلاء : ٢٣٤/٩ .
٢٢. يُنظر ، المصدر نفسه : ٩/ ٢٣٤ .
٢٣. مجموع الفتاوى ، ابن تيمية : ٦/ ٤٢٥ ، ط٢ ، دار الحديث ، القاهرة ، ٢٠٠١م .
٢٤. البداية والنهاية : ٢٨/١٤ .
٢٥. المصدر نفسه : ١٠٢/١٤ .
٢٦. جامع الترمذي،الترمذي: ٤٩٨ (٢١٧٤) ، ط١، دار السلام ، الرياض ، ١٩٩٩م .
٢٧. رفع الإصر عن قضاة مصر ، ابن حجر العسقلاني : ١٠٣/١ ، د.ط ، د.ت .